

الأنباط وبترا في المصادر العربية الإسلامية

فايزة أحمد سميشة

جامعة الجزائر 2

ملخص

بالرغم من ان بترا كانت من أهم المحطات التجارية العربية قد حظيت باهتمام الاغريق و الرومان و ذكرت في مصادرهم على انها من اهم المدن التجارية و اهمها بالنسبة للأنباط الا انها لم تحظ بذكر لها في المصادر العربية الإسلامية المبكرة مع انها ذكرت فيها لاحقا و هذا ما يدعونا للتساؤل حول اذا كان اسم بترا اصلا لم يكن وارد بهذا الاسم في الوسط العربي القديم و الأمر عينه بالنسبة للأنباط الذين لم يرد ذكرهم أيضا في المصادر الإسلامية المبكرة في الوقت الذي أسهبت فيه بالحديث عن امم و اقوام عربية، و لم يذكروا اسم الأنباط و هم من أشهر التجار العرب ،لهذا فإن احتمالية اسم بترا و الأنباط لم يكن واردا آنذاك بل عرفوا باسم اخر و الحجر هو أقرب الاسماء للبترا أما الأنباط فهم على الاغلب قبيلة ثمودية الأصل و قد عرفوا على هذا النحو على الاقل في المصادر الإسلامية و إن كان قد ورد هذا الاسم في جغرافية بطليموس عندما تحدث عن الحجر، باسم ثموديتاي التي اصبحت جزءا من مملكة الرومان من عام 106م.

الكلمات المفتاحية: بترا، الأنباط ، الحجر (مدائن صالح)، ثمود.

Abstract:

A thought Petra was one of the most important Arab commercial station in the ancien world ,and it's the important made it to be the focuse of the ambitions of many countries then the Greek and Romans where reported in their sources, but did not mention that name in the early Arabe sources , they did later,this leads US to wonder whether the name of petra was originally not includeded in the old Arab centerit was onther name, and the same thing about the Nabataeans wich were not mentioned in the early Islamic sources also ,at the time when thy mentioned the name of Arab nation and peoples, therefor ,the probability of the name petra and the Nabataeans was not avaiable then ,they knew another name ,the Hegra is the earliest name of Petra and the Nabataeans are mostly a tribe of thamodien origin and were knows as such at l'East in early Islamic sources, if this name was mentioned in the geography of potlomy as thamoditai wich became a part of the kingdom of the Romans in 106 AD.

منذ أن قام الرحالة السويسري "بيركهارت" بإعادة اكتشاف البترا عام 1812م ، و تقديمها للعالم لم تتوقف أعمال البحث العلمي و التنقيب الاثري في هذه المنطقة حتى يومنا هذا.

فقد سعى الباحثون و المؤرخون العرب منهم و الاجانب جاهدين لسبر أغوار التاريخ و البحث في كل ما يختص بالحضارة النبطية و تاريخها و امتداد دولتهم الذي غطى مساحة كبيرة من الشرق ، امتدت فيها من دمشق حتى شمال الجزيرة العربية ، وصولا الى سيناء غربا ، ليكونوا بذلك اسياذ العالم القديم تجاريا منذ القرن الأول قبل الميلادي حتى بدايات القرن الميلادي ، و حتى بعد خضوع دولتهم للسيطرة الرومانية سنة 106 م¹، إلا ان مظاهرها الحضارية استمرت لفترات طويلة بعد ذلك ، و هذا ما اتضح من خلال الكتابات النبطية حتى بعد انقضاء فترة سيطرتهم على المنطقة.

و لقد عمل المختصون على توثيق كل ما يتعلق بالبترا والأنباط من ذكر أو إشارة في المصادر التاريخية ،سواء الآشورية منها أو الفارسية أو اليونانية و الرومانية ، إذ نشرت العديد من الابحاث في هذا الصدد ، لكن الاستفسار الدائم ، هو سبب غياب ذكر البترا في المصادر العربية القديمة؟! و كذا المصادر الاسلامية المبكرة حتى ؟! علما أن الاكتشافات الاثرية المتأخرة ، أثبتت استمرار الوجود السكاني فيها حتى القرن السادس ميلادي² ، و هي الفترة التي شهدت بها قريش أوج نشاطها التجاري بين جنوب شبه الجزيرة العربية و شمالها ، و هذه الفترة الزمنية لا تفصلنا كثيرا عن البعثة النبوية الشريفة ، و التي لم تذكر مصادرها أيضا شيئاً عن البترا؟!!

و في المقابل تذكر المصادر الاسلامية المبكرة العرب الاوائل و قبائلهم ، و انسابهم و آلهتهم و عباداتهم ابتداء من اليمن وصولا الى تدمر في سوريا و هنا يشير بعض الباحثين الى ان غياب ذكر البترا في هذه المصادر هو ملاصقتها لبلادهم في شمال الجزيرة العربية ، لهذا سنحاول من خلال هذا البحث الفصل في هذا الامر و تبيان اسبابه.

و قبل الخوض في غماره ، لا بد أن نشير الى ان المصادر العربية و التاريخية التي ارجت لبدايات الفترة الاسلامية ، و لما سبقها من التاريخ العربي ، و قد بدأت في القرن الثاني هجري ، و الذي يعتبر فيه " محمد بن اسحاق" من أهم مؤرخيه و ان سبقه البعض كسليم بن قيس الهلالي ، و عبيد بن شربة ، و غيرهم ، الا ان ابن اسحاق يعتبر المرجع الرئيسي لمن عاصره و المعروف ان كتابه لخصه ، عبد الملك بن هشام و المعروف بابن هشام ، صاحب سيرة ابن هشام³

و بمتابعة بسيطة لأهم التواريخ الخاصة بالسيرة النبوية الشريفة ، نلاحظ أن مولد الرسول عليه الصلاة و السلام ، كان في مكة المكرمة في حدود سنة 571م ، و بعثته كانت في حدود 610م ، و هجرته عام 622 م ، ووفاته عليه الصلاة و السلام كانت عام 632 م و هذا ما وثقته الكتابات التاريخية العربية لهذه الفترة.

و لقد رصدت لنا هذه الكتابات الاحداث الهامة ايضا في التاريخ الاسلامي ، و خاصة ذكر المواقع و الأماكن الجغرافية و الأقسام العربية ، خلال الغزوات التي قام بها الرسول صلى الله عليه و سلم ، لكن لا نجد بها أدنى ذكر لمدينة البترا.

فها هو الجيش الاسلامي يتحرك في السنة الثامنة للهجرة /629 م في غزوة مؤتة منطلقا من المدينة المنورة نحو بلاد مؤاب متوقفا في مكان التي لا تبعد أكثر من 40 كلم عن البترا، و هنا غاب هذا الاسم كليا في كتب السيرة التي تناولت هذه الغزوة ، و في السنة التاسعة للهجرة /630م ، ينطلق الرسول صلى الله عليه و سلم في غزوة تبوك ، و يتوقف هو و أصحابه في منطقة الحجر⁴ و هي من أهم المدن النبطية المعروفة بمدائن صالح ، ثم يكمل الجيش طريقه ليصل شمال الجزيرة العربية و يقيم بها بضعة عشرة ليلة ، و كيف أن يحنة بن رؤبة من آيلة (العقبة) جاء الى الرسول و اعطاه جزية ، و " اكيدر" من دومة الجندل صالحه على الجزية ، و غيرهم من هذه المناطق كما ذكرها الطبري⁵

و كل هذه المناطق و الاحداث قريبة من البترا و كانت تابعة للأنباط ، الا ان كتب التاريخ لم يورد بها ذكر لهذه الاسماء و لا حتى الاشارة اليها ، مما يرجح فرضية ان اسمي البترا و الانباط لم يكن شائعا آنذاك بين العرب بل عرفوا باسم اخر ، و أن ما ورد من اسماء عنهم جاء فيما بعد باسم نسبة و ليس له علاقة بالهوية و الاصل .

لأنه حتى في فترة الفتوحات الاسلامية التي اعقبت وفاة رسولنا الكريم في السنة 11 للهجرة/ 632م ، و التي انطلقت أيضا من المدينة باتجاه العراق و بلاد الشام ، و التي اسهبت كتب السير في الحديث عنها من حيث التواريخ و قادة الجيوش و محطاتها و تحركاتها التي شملت شرق الاردن الحالي و كان مسرحا لأهم المعارك في الفتوحات الاسلامية و التي ذكرتها المصادر ، إلا أن اسم البترا أيضا لم يرد في أي منها ، و الامر عينه بالنسبة لمصطلح الانباط.

و مما لا شك فيه ان البترا قد شهدت مرحلة نزاع للسيطرة عليها في العصور الاسلامية اللاحقة (الفترة الأيوبية و المملوكية) حيث عمل الفرنجة على اتخاذ بعض المواقع الاستراتيجية بها كقلاع عسكرية لهم لإتمام السيطرة على جنوب الاردن ، و هي التي تبعد حوالي 30م ، من قلعة الشوبك ، فظهرت بها القلاع الصليبية مثل قلعة الوعيرة⁶ حررتها جيوش صلاح الدين الايوبي فيما بعد ، و فيما يذكر المقرئ في حديثه عن هذه الأحداث سنة 584 هـ أن صلاح الدين قد بعث سعد الدين الاسدي ليحاصر الكرك و الشوبك و سلع حتى يسلمها مع عدة حصون هناك في رمضان⁷.

ففي كلمة " سلع" اشارة الى منطقة البترا لأنها عرفت قديما ايضا بهذا الاسم على حسب ما ذكر في التوراة، و ان كان يرى البعض ان سلع في التوراة لا يقصد بها البترا.

كما كانت البترا معروفة في الفترة المملوكة ، و زارها الظاهر بيبرس عام 674 للهجرة /1276م ،
و مرّ بقبر النبي هارون و ابدى إعجابه بها .

و هذا ما اورده شهاب الدين النويري في كتابه⁸ أيضا يوسف غوانمة⁹ و لقد أورد هذه الزيارة بالتفصيل
الدكتور فوزي زياد الدين في احدى مقالاته عن الكرك لأنه ابن المنطقة¹⁰ ، كما ورد اسم البترا في كتاب
عبد الله البكري ، عند ذكر مساجد الرسول صلى الله عليه و سلم ، بقوله >> ... ومسجد بطرف البترا
من ذنب كواكب...<<¹¹.

اذا من الغريب أن نجد ذكر للبترا في المصادر العربية (العصر الوسيط) في حين ان ذكرها يغيب تماما
في المصادر العربية المبكرة ، و التي تحدثت بإسهاب كما سبقت الاشارة في وصف و ذكر اخبار الأوائل
لأنه من غير المعقول أنهم كانوا يجهلون وجود هذه المدينة المميزة المنحوتة في الصخر و الواقعة على
حدودهم الشمالية ، و التي كانوا تحت سيطرتها في فترة من الفترات ، فكيف غابت عن أخبارهم و هم
الذي عبروا البلدان طولا و عرضا بتجارتهم و هم من لم تغب عنهم أمكنة في بلاد الروم و فارس و
الحبشة و افريقيا ، فكيف يغيب اسم بترا المدينة المجاورة لهم، و هي التي كانت جزء من حضارة مدينة
الحجر النبطية.

و عليه يمكن تفسير كل هذا استنادا الى ما اطلعنا عليه كما يلي:

في الحقيقة قد يكون من الصعب جدا ان نجد اسم "بترا" في المصادر العربية الاسلامية المبكرة، لأنه كما
هو معروف أن "بترا" مصطلح يوناني يعني الصخر، و أعاد احياءه " بيركهارت " بعد اكتشافه للبترا
بناء على المصادر اليونانية و الرومانية التي اعتمد عليها و نحن الآن نستخدم هذا الاسم بشكل عفوي
مع العلم ان الانباط لم يطلقوا على مدينتهم هذا الاسم ، بل لم يستخدموه حتى ، فهم كعرب استخدموا
اسما على مدينتهم على حسب لغتهم ، و هو نفس الاسم الذي استخدمه بنو جلدتهم من القبائل العربية
الاخري ، بالتحديد في شبه الجزيرة العربية و الامثلة على هذا كثيرة ، فعمان او " ربة عمون " التي
ظلت لمئات السنين تسمى بالاسم اليوناني " فيلا ديلفيا" ، فان اسمها بين العرب ظل دائما يحمل المعنى
العربي في كتاباتهم ، حتى انها وردت بأحد الاحاديث النبوية باسم عمان .

و هذا هو التفسير المنطقي لغياب اسم البترا في المصادر العربية القديمة ، إذا ما هو الاسم الاصلي
النبطي للبترا؟

ذهب البعض بقوله ان الاسم الاصلي للبترا هو " سلع" بناء على ما اورده ياقوت الحموي ، بأن " سلع"
تعني شقوق في الجبال¹² ، و هو ما يقابله في المعنى اسم " سلع " بالتوراة >> أرسلوا خرفان حاكم
الارض من سلع نحو البرية الى جبل إبنة صهيون¹³

و مازال اسم سلع معروف في محافظة " الطفيلة " و من المواضع المميزة التي اشتهر بقلعته التي تحتوي على المسلة البابلية ، كما أنه يوجد الكثير من المواقع التي يطلق عليها هذا الاسم في شبه الجزيرة العربية نظرا لان هذا المصطلح هو وصف لطبيعة جغرافية ، وهذا ما يجعل اسم سلع بعيد عن مدينة البترا الحالية كون انه هناك اسم اخر نبطي عرفت به البترا من خلال نقوشهم ، لأنه بعدما عثر على نقوش فيها ذكر لأسماء ملوكهم وآلهتهم فمن الطبيعي ان يرد اسم مدينتهم ايضا بالاسم النبطي ، و لقد كانت الفرصة سانحة للكشف عن احد هذه النقوش على يد عالم الاثار الفرنسي " جون ستاركي" الذي اكتشف احد النصوص النبطية المنقوشة على مدخل السيق و عليه الاسم القديم للبتراء و هو (أ ر ق م و) (رقمو) إذ يتحدث النقش عن شخص يدعى " تيمو" و الذي كتبه تكريما لابنه بالتبني (بيترايوس) من رقمو و الذي مات و دفن في جرشو ، و لقد ارخ ستاركي هذا النقش بين سنة (50-100م)¹⁴.

و لقد اتفق معظم علماء التاريخ و الاثار على هذا الاسم كونه يتزامن مه مدينة البترا قبل خضوعها للسيطرة الرومانية ، إلا أنه وقع اختلاف حول اسم " جرشو" فستاركي ذكر على انه مدينة جرش ، إلا أن فوزي زيادين قال أنها مكان في شمال الجزيرة العربية قرب الحدود الأردنية¹⁵ .

كما ورد اسم " رقمو" و ما قابله باسم (رقيم) في المصادر العربية الاسلامية على أنها مدينة قرب البلقاء و هي مدينة صغيرة منحوتة بيوتها وجدرانها بالصخر كأنها حجر واحد¹⁶ .

كما أن القرآن الكريم ذكر هذا الاسم في سورة الكهف >> **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**<<¹⁷

ففي بحث عن معنى الرقيم ،يورد الطبري انها الوادي الذي به اصحاب الكهف ، كما يذكر ابن عباس ان الرقيم واد بين عفسان و آيلة (العقبة حاليا) و هو قريب من آيلة ، ومدينة العقبة تبعد عن البتراء حوالي 100 كلم ، فهل من الممكن ان تكون الرقيم في سورة الكهف هي البتراء؟ و ان الكهف المقصود في النص القرآني هو احد كهوف البتراء ؟ و ان كان قد تم تحديد هذا الكهف عام 1963م بعد اعمال التنقيب التي قامت بها دائرة الاثار العامة بالأردن برئاسة الدكتور رفيق الدجاني بمنطقة " ابو علندا" بعمان، و تم على اثر التنقيبات اعتماد " كهف الرجيب بانه هو الكهف الذي حدثت به هذه المعجزة¹⁸.

وكان هذا قبل عام من اكتشاف النقش النبطي عند مدخل السيق الذي دلنا على اسم رقمو و التي تعني الشق ، و قد يكون هذا الاكتشاف بحسب راينا سببا في اعادة التقصي و البحث حول هذا الامر خاصة و انه ورد اختلاف في مكان حدوث هذه القصة ، مع الاعتبار اننا قمنا بزيارة هذا الموقع الاثري ، الذي يوجد به اصحاب الكهف لكننا لم نلاحظ بقايا مدينة تعود لهذه الفترة بالقرب من هذا الكهف كما ان المنطقة ليست جبلية ووعرة المسالك ، حتى يتخذ الفتية مكانا بعيدا عن اهلهم و على من يردوهم عن ملتهم ، يعني انها مكشوفة و بحسب ما ورد في القصص القرآني ان الفتية طلبوا من احدهم النزول الى

المدينة ليأتيهم بطعام و هذا يدل على قرب الكهف من المدينة. إذا هم لم يذهبوا الى منطقة اخرى بعيدة عن مدينتهم.

و إن كانت بترا عرفت بين العرب قديما باسم " رقمو" فلماذا لم يرد هذا المصطلح أيضا كتعبير عن مدينة البترا! و عليه يمكننا اللجوء الى مصدرنا الاول هو القران الكريم و ما يقوله في هذا الصدد و على اثره يمكننا التوثيق كونه مصدرنا الموثوق الذي وردت فيه اخبار الامم و اسماءهم.

ان القران يسمي المنطقة بين الشام و الحجاز بما فيها البترا و الحجر، و هذا المكان الذي عاش فيه قوم ثمود ، وهم احد الاقوام المعروفة في القران الكريم و اهم ما ميزهم حسب ما ورد فيه ، وهو مهارتهم في النحت ،شأنهم شأن قوم عاد ، فعاد و ثمود ينتميان لنفس العائلة و يشتركون في الاب ارم بن سام بن نوح عليه السلام¹⁹ و كلاهما عرفا بقدرتهما على النحت ، و هلكوا بريح صرصر عاتية بسبب تجبرهم في الارض و تكذيبهم بالرسل ، ليتعلم قوم ثمود من هلاكهم ، فتحثوا بيوتهم على الجبال و الصخور و كانت منطقة الحجر هي مركزهم لتغدو بذلك مركز استراتيجي يربط بين الهند و مصر من جهة الشرق و الغرب و الشام و السعودية من جهة الجنوب و الشمال ليصبحوا بعدها اغنياء و سادة التجارة فحولوا المنطقة الصحراوية الى جنات بسبب تطوير الاساليب الزراعية بابتكار أساليب الري صنفت انها متطورة انذاك خاصة التي عثر عليها بالبتراء²⁰

الا انهم ايضا طغوا في الأرض بسبب سيطرتهم و غناهم ، و كذبوا نبيهم صالح عليه السلام الذي دعاهم للتوبة ، و يذكر لنا القران قصتهم معه و مع الناقة التي عقروها ، فسلط الله عليهم عذابا ،ظنا منهم أن بيوتهم المنحوتة ستحميهم ،من عذاب الله ، الا أن الصيحة التي اخذتهم قضت عليهم فأصبحوا جاثمين.

1. >> كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَنْتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(152)>>²¹

و قوله تعالى: <<وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67)>>²²

فكما يفهم من الآيات القرآنية أن هذه الأوصاف تطبق على المنطقة الممتدة بين الحجر (مدائن صالح) و البترا .

و على كل حال فان انتشار الكتابات الثمودية من شمال الجزيرة العربية الى الحجر دليل على امتدادهم و على فتراتهم الطويلة و المختلفة ايضا ، و ان كان موضوع الدراسة اللغوية حول اثبات هوية الثموديين موضوع اخر ، لكن ما يهمنا هو ربط قوم ثمود بالبيوت المنحوتة و التي لا توجد الا في منطقة الحجر و البترا كما سبق الذكر

ايضا في معنى بعض الآيات القرآنية حول هلاك قوم ثمود ان من اتخذوا من الجبال بيوتا اخذتهم الصيحة ، أما الذين سكنوا السهول فأخذتهم الرجفة (يعني الزلزال) و طمروا تحت الارض بدليل عبارة دَمَدَمَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ، لقوله تعالى : << فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا >>²³ و هذا امر اخر يدعو لتكثيف التنقيبات الاثرية بمنطقة مدائن صالح الحالية لعلها تجود علينا بمعلومات تزيل كل ما يكتنف هذه الفترة من غموض.

كما تجدر الاشارة الى ان البترا كانت دائما عرضة للزلازل حتى في فتراتنا المتأخرة و هذا ما جعل نشاطها التجاري يتراجع و هجرة سكانها منها ، و اتخاذ البصرى بسوريا عاصمة جديدة لمملكة الانباط

و لقد حاول بعض المستشرقين منهم البريطاني "دوتي" ان يجرد الحجر من انتسابها لثمود و انوالانباط هم من بنوها ، لكن هذا لطعن صحة ما ورد في القرآن لان العلماء الأثريين أثبتوا قدم المباني النحتية بالحجر و ان قوم ثمود من نحتها ليطورها الانباط فيما بعد في القرن الاول و الثاني ق . م و اتخذوها قبورا لأشرافهم بعدما كانت مساكن لقوم ثمود لان تصميمها لا يدل ابا انها كانت مدافن ، بل هي مساكن عرفت فيما بعد بمدافن الانباط التي زينوها بألتهتهم " ذو الشرى" ، كما ان ابن خلدون ذكر انه نجد بيوت ثمود منحوتة في الحجر لكن دليل أن الحجر هي المنطقة التي يسكنها قوم ثمود هو الحديث النبوي اثناء مروره بالمنطقة لبلوغه تبوك ، فعن ابن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه و سلم لما مر بالحجر قال: << لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم ، ان يصيبكم ما اصابهم الا ان تكونوا باكين ، ثم قنع راسه و اسرع السير ، حتى اجاز الوادي >>²⁴

الا ان بعض المفسرين يذهبون الى ابعده من هذا ، لكنهم يجتمعون ان اصحاب الحجر هم قوم ثمود الذين كذبوا بجميع المرسلين و هذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره²⁵، لكن بعض المفسرين قالوا لا اختلاف اي اصحاب الحجر هم قوم ثمود ، استنادا الى احاديث الرسول الكريم ، لكن الأهم هو من هم اصحاب الحجر المقصودين بهذه الآية ؟ لأن الله ذكر صراحة قوم ثمود و انهم كانوا ينحتون الجبال ، فلماذا يذكرهم الله سبحانه و تعالى بانهم اصحاب الحجر اذ كانوا هم أهل ثمود؟ و لماذا كذبوا المرسلين ، و نحن نعلم أن من أرسل اليهم هو النبي صالح فقط. و هنا يمكننا قول الآتي :

أن الحجر اولا لغويا هي في القلة احجار و في الكثرة حجارة و الحجر هو المحجوز ، اذ يقال حجز عليه القاضي اي منعه من التصرف ، فهو محجوز و الحجرة حظيرة الإبل و منه حجرة الدار ، و الجمع حجر²⁶

و هنا يرون ان هذه الاوصاف تنطبق على البترا و هي المقصودة في هذه الايات القرآنية، و الاسم نفسه اطلق على مدائن صالح ، فهي الاخرى بناياتها على شكل حجرة ، و تنطبق عليها نفس الاوصاف و القران جمعها بلفظ واحد.

اما عن حديث ابن عمر بقوله : >> ... لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر...<< و هذا معناه ان الحجر بعد تبوك و ليس قبلها لان منطقة العلا التي فيها مدائن صالح بعد المدينة في الطريق لتبوك ، و في الطريق مر الجيش و هناك قنع الرسول رأسه حتى اجاز الوادي و نزل الى معن التي هي بقرب مدينة البتراء ، ولا بد انهم دخلوها ، وجاء خبر الرسول للمصطفى عليه الصلاة و السلام فجمعهم للصلاة و نهاهم عن الدخول فيها²⁷.

و يضيف المفسرون ان البترا هي المقصودة ، فمنطقة العلا بعيدة جدا عن تبوك و الجيش معسكر فيها ، و ليس هناك حاجة للعودة الى العلا ذهابا و ايابا ، و البترا كانت في طريقهم و هناك نهاهم عن الدخول اليها بقوله : >>... اني اخشى ان يصيبكم مثل ما اصابهم فلا تدخلوا عليهم<< ، فكلمة تدخلوا عليهم :

يعني ان الدخول يكون للمكان الذي له حدود و باب و هي محجورة (داخل حجرة) ، فعن عامر بن سعد رضي الله عنه قال : >> لما كان الناس في غزوة تبوك فسارع الناس الى اهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى في الناس (الصلاة جامعة) <<²⁸ فتبوك أقرب للحجر و هو موقع البترا ، وانهى المطاف بالمسلمين الى تبوك في اقصى الشمال ، و علم الروم و حلفاؤهم بمسير المسلمين فأثروا الانسحاب الى الداخل فاجتازوا الاردن و فلسطين بهدف استدراج القوات الاسلامية الى الداخل و القضاء عليها.

لكن الرسول صلى الله عليه و سلم افشل مخططهم و عسكر في تبوك و جعلها اخر توغله شمالا ، ليراقب تحركات الروم عن كئيب²⁹ و من هنا يتضح ان الرسول الكريم امر الجيش بارهاق الطعام في بداية الطريق الى تبوك الذي هو الحجر (مدائن صالح) و نهاهم عن دخول ما كان يتصل بالحجر ايضا هي البترا و ان الله ارسل لهم عدة رسل و ليس رسولا واحدا . لكن " صالح" من ذكره القران ، و حتى مصطلح " مدائن صالح" لم يكن يطلق على الحجر في هذه المرحلة ، بل هو اسم حديث ارتبط به منذ القرن الثامن للهجرة نسبة الى صالح من بني العباس بن عبد المطلب

و لان البترا كانت مخفية فترة من الزمن فقد تم اكتشافها في بداية القرن العشرين و لهذا فان الاسم الشائع الاول للحجر و أنها كانت جزءا لا يتجزأ من هذه الحضارة و الدليل هو الجبال المنحوتة على نفس النمط ، فهما الاثنان واحد ، و قومهم ثمود على مراحل فقط ، و ان الحجر في القران كحجرة هي البترا .

فمن يعتقد ان الانباط الذين يرتبطون بالبترا و قوم ثمود شعبين مختلفين ، عليه ان يعيد النظر في هذا كون الدراسات الحديثة اضافة الى تفسير احاديث الرسول، تشير الى انهما من نفس الحضارة، و ان قوم ثمود و الانباط اصلا نفس الشعوب، فقط قوم ثمود و دولتهم قامت على مراحل مختلفة و تحت اسماء مختلفة ، لكنها واحدة و ان قبيلة الانباط التمودية التي جاء دورها لحكم الحجر كانت على راس نبات بن اسماعيل ، و هذا ما ذكره " جبسن " Gebsson في مؤتمره الثاني للدراسات النبطية في البترا عام 2002 ، أما في كتابة جغرافية القران ، انه و بعد قرون من هزيمة المدينيين من المشرق ، تبوأ قبائل اسماعيل القيادة تحت تعليمات قبيلة الانباط الذين يرجعون الى الابن الاكبر لاسماعيل ، لكن هذه الامبراطورية كانت تختلف في اهدافها اذ ركزت على التوسع التجاري و ليس العسكري ، يدعوهم القران قوم ثمود. اما اليهود فدعوهم الانباط و دعاهم الرومان العرب الذين ضموا سنة 106 م الجزء الشمالي من مملكتهم و هكذا اختفوا عن الانظار ، و استمر وضعهم السياسي هكذا الى سنة 600م حيث اتحدت شبه الجزيرة العربية تحت راية الاسلام ،

و هو على ذلك يرى ان العرب اتحدوا اربع مرات ، فالأولى مع شعب عاد ، و الثانية تحت قيادة المدينيين و الثالثة مع الانباط ، و الرابعة في فترة الاسلام³⁰.

و ربما هذا ما يفسر أيضا غياب اسم الانباط بصريح العبارة في النقوش العربية القديمة ، وهي في المصادر العربية المبكرة فيما بعد ، لانهم عرفوا باسم اخر لا ينفصل عن قوم ثمود ، كما بالنسبة للبترا التي لم تنفصل عن الحجر كونها تابعة لها 31

لأن الكثير من يذكر أن البترا كانت عاصمة الانباط ، إلا أن هذا لم يرد الحقيقة في المصادر القديمة ، لأنه و برأينا و على اعتبار أن الانباط أقوام عربية هاجرت من شمال الجزيرة العربية بالقرب من " القصيم" متجهة الى العلا من ثم إلى الحجر (مدائن صالح) ثم إلى البترا هذا هو المنطق في رحلتهم من الشمال الى موقعهم فيما بعد في البترا. إذ كيف لهم أن يتخذوا من البترا عاصمة ، ثم يعودون إلى الحجر (مائن صالح) لتصبح من أهم مدن الانباط.

أيضا ما عثر عليه من نقوش بمدينة الحجر و التي صنفت بأنها سياسية و اجتماعية و اقتصادية ، يدل على تمركز الانباط بها ، و حتى مدافنهم أكثرها كانت " بالحجر" ، و معظم الألقاب السياسية و العسكرية نقشت على جبالها المنحوتة ، فلا شك أنها كانت مركز الساسة و القوة العسكرية لهم ، لأنه في

المقابل لا نجد مثل هذه النقوش و أهميتها في البترا ، و حتى النقوش الكتابية قليلة منها لأنه و بعد زيارتنا الميدانية للبتراء لاحظنا انه لا يمكن ان تكون هذه المساحة تعكس كيانا سياسيا و عسكريا للأنباط ، ومع طول فترة قيام مملكتهم ، فنحن نفترض عددا معتبرا من الكثافة السكانية فيها ، لكن هذا لا ينطبق على مدينة البتراء المحصورة بين السلاسل الجبلية الصخرية ، لهذا رأينا أنها طبعا شكلت منعرجا جاسما من حياة الأنباط ، لكنها لم تكن عاصمتهم السياسية بل الاقتصادية على الأرجح ، و ان الانباط اتخذوها محطة تجارية هامة و اساسية لموقعها الاستراتيجي الذي تنفرع منه الطرق التجارية³²

كما يذكر "كارمر Kammrer" أن البدايات الأولى في تاريخ البترا أنها كانت محطة لأصحاب الجمال ، أين كانت تحط بها القوافل بين غزة و وادي الرافدين و البحر الاحمر و اليمن³³ ، مما جعلها مركزا هاما لتوزيع البضائع الباهضة الثمن و ذلك بوضع نقاط للحراسة و ابراج للمراقبة ، لكن أليس من الغريب أن يغيب اسم الانباط أيضا في المصادر العربية القديمة ، بالرغم من أهميتهم التجارية آنذاك في الوقت الذي ورد فيه ذكر تدمير بسوريا و ملكتها زنبوبيا و هي التي لا تبعد كثيرا عن مقر الانباط ، عدا عن علاقاتهم بسوريا انذاك 34

وقد يكون الجواب على هذا هو أن معظم ما تناقله العرب عبر التاريخ و أحداثه قبل الإسلام يدخل تحت بند التاريخ الشفهي غير المكتوب إذ سقط ذكر أقوام بانتهاء كياناتهم ، و هذا ما قد يكون حدث بالنسبة للأنباط إذ أخذنا بعين الاعتبار أن بداية التوثيق في الحضارة الاسلامية تبدأ في القرن الثامن ميلادي ، يعني بعد أقول نجم مملكة الانباط.

أما عن اسم النبط الوارد في اخبار العرب ، فيما بعد لم يكن له علاقة مباشرة بالبترا أو أشير به إلى أنها مملكة أو دولة ، بل هو على الأغلب صفة عرف بها من يسكنوا العلا و الحجر و البترا ، لمهارتهم المميزة في استنباط المياه من جوف الصحاري و تطوير انظمة الري بمملكتهم ، و هذا ما اجمع عليه المؤرخين و الاثريين و عليه فإن مصطلح الانباط هو اسم شاع فيما بعد عن هؤلاء لكن لم يكن هذا اسمهم بفترة قيام دولتهم و كيانهم السياسي و الاقتصادي فلولا هذا فلماذا يغيب هذا الاسم في المصادر العربية و الفارسية و حتى في النقوش المتعلقة بهم ، إذ لا يوجد نقش ورد به اسم صريح لدولة الأنباط أن اسمها هكذا .

و تبقى جهودنا كباحثين و كمهتمين بتاريخ العرب و انجازاتهم التي تفوقت على الغرب آنذاك ، قليلة مقارنة بالأهمية التي كانوا عليها هؤلاء ، لهذا علينا ان نكتف دراساتنا حول هذا محاولة منا لتوثيق تاريخنا العربي ، الذي أخذه المستشرقين و الباحثين الغرب على أنه مرحلة من مراحل التاريخ العربي القديم فقط، إلا انه في حقيقة الأمر هو أعمق من ذلك كون الجزيرة العربية شهدت هجرات متتالية إلى مختلف مناطق العالم القديم آنذاك ، صف الى ذلك علينا أن نأخذ مصادرنا العربية و الإسلامية كأساس لهذه الدراسات

لدعم الدراسات الأثرية و التاريخية ، حتى نعطي مصداقية أكثر لقرآنا و لما جاء به نبينا عليه الصلاة و السلام . في الوقت الذي تعمل ف فيه بعض الجهات العلمية الغربية الى تكذيب القرآن و ما جاء في أحاديث نبي الأمة محمد عليه الصلاة و السلام.

أيضا على أصحاب الأرض التي عليها هذه المدينة القيمة أن يراجعوا مفاهيمهم حول علاقة البترا مع قوم ثمود، و ان يتجاوزوا فكرة أنها مدينة قديمة و عجيبة و واحدة من عجائب الدنيا السبع فقط ، و حتى أساتذة الآثار في الجامعة الاردنية تبينوا فكرة أن الانباط و قوم ثمود شعبيين مختلفين ، و يتناولون المسألة بشكل مادي و ينسبونها الى أيادي غريبة آنذاك لجمالية نحتها .

لهذا علينا كمسلمين وكباحثين عرب ان نحمل على عاتق مسؤوليتنا هذا الارث العالمي الفريد من نوعه و أن نكشف حجاب السر عن تاريخ البترا القديم ليس كحضارة و مسار تاريخي فقط ، بل ايضا من باب الموعظة و العبرة لقوله تعالى : >> قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ<<³⁵ .

الهوامش :

- (1) Frosèn.(J), The Petra papyri, vol (1) , 2009, p 20
- (2) Amr.(K) and Al Momani (A), village of the Early Eslamic periods in the Petra , paris, p 305
- (3) الحوت محمد سليم، في طريق الميتولوجيا عند العرب ، 1935م ، ص 190
- (4) الطبري محمد بن جرير ، جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق محمد شاكر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، 2000، ص 105
- (5) نفسه ، ص 109
- (6) قولفانغ مولرزقز ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة : وليد الجلاذ، مركز الدراسات العسكرية ، 1983، ص 118
- (7) المقرئزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج 1 ، ص 214
- (8) شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ص 90
- (9) يوسف غوانمة ، التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي، 1983، ص 69
- (10) pp.academic .edu.Jordan
- 11- عبد الله البكري ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع ، 1983 ، ص 66
- 12- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 2 ، 1957 ، ص 1522
- 13- سفر اشعيا ، 16:1 ، ايضا سفر اشعيا ، 42: 11
- 14- Starcky(J) , Nouvelles stêtes funeraires à Petra .p 43-
- 15- zayadine.f.caravan routes between Égyptien and Nabataeans,p 159
- (16) الاصطخري ، المسالك و الممالك ، 1937 ، ص 24
- 17- سورة الكهف ، الآية 09
- 18- الدجاني رفيق ، اكتشاف اهل الكهف ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ص 38 / انظر أيضا : Starcky , op cit, p 49
- 19- سهيلة مرعي ، النقوش الثمودية (أهميتها و محتواها) ، 2007 ، ص 152/ أنظر أيضا سفر التكوين 11: 23
- 20- خالد الحموري ، مملكة الانباط (دراسة في الاحوال الاجتماعية و الاقتصادية) ، 2002، ص 77
- 21- سورة الشعراء ، الآية ، 141-152
- 22- سورة هود ، الآية ، 67
- 23- سورة الشمس، الآية 14
- 24- أبي الفداء اسماعيل بن مثير ، قصص الأنبياء ، تحقيق و مراجعة الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار الأرقم ، بيروت.ص.93
- 25- نفسه ، ص 265
- 26- ياقوت الحموي ، المرجع السابق ، ج6 ، ص 221
- 27- ابن بلهير ، صحيح الأخبار، انظر أيضا الحاكم في مستدرکه ، ج3 ص 88

- 28- ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق ، ج 19 ، ص 36
- 29- محمد بن احمد باشميل ، موسوعة الغزوات الكبرى (من معارك الاسلام الفاصلة ، غزوة تبوك) المجلد 2 ، ط 3 ، 2006 ، ص 1747 / أنظر أيضا : زيدون المحسن ، الحضارة النبطية ، ط 1 ، جامعة اليرموك ، كلية الآثار ، ايريد الأردن ، 2012 ، ص 143
- 30- شارلزدين جيسن ، الجغرافيا القرآنية ، تلخيص جرجي سميث ، منشورا مطبعة العلماء المستقلون، ص 21 /انظر أيضا: البترا نموذجا لمساكن قوم ثمود في ضوء القصة القرآنية ، مقال بقلم صدى اوزلكان ، ص 7
- 31- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 321
- 32 فوزي السلامين ، مدخل الى تاريخ البترا ، ص 263
- 33- Kammrer (A) , Pétra et la Nabatéen, vol 2 ,paris , 1929, p 33
- 34- Rostovtzeff, caravan cities, p 48 انظر ايضا : صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج 1 ، جامعة الموصل ، دار الكتاب للطباعة و النشر ، 1954م ، ص 123
- 35- سورة الروم ، الآية 42